جيماً من المسلمين ، وإن الرابطة الاسلامية يتبعها عدة ملايين وينفصل عنها فريق آخر بعضهم من الشيعة وبعضهم من السنيين، وأن تبادل السكان بين الأقاليم الاسلامية والأقاليم الهندوسية لتسوية عناصر القلة في جميع الأقاليم ليس بالحل الميسور ولا يتأتى إتمامه في بضع سنوات .

فربما كان نظام الاتحاد على المثال المتبع في الولايات المتحدة أقرب إلى تسوية المشكلة مع الأخذ بالأساس المقرر في نظام الباكستان .

وعلى ذكر الولايات المتحدة الأمريكية نعود إلى الواهمين ليفهموا مرة أخرى أن تقسيم الولايات شيء وجريمة الانشقاق شيء آخر ، وأنه إذا جاز هذا التقسيم في بلاد كالبلاد الأمريكية لا تفرق بين أبنائها أمثال تلك الفوارق ولا تعترضهم أمثال تلك المشكلات ، فنظام الباكستان في الهند أحق بالتدبر والمنظرة أدنى إلى القبول .

عباس محمود العقاد

الفقر آفة البشر
كيف عالجه الإسلام

لصاحب السعادة الأستاذ عبد الرحمن عزام باشا

الفقر أعظم آفات الاجتماع البشرى ، وأعظم مايثير السخط على الحياة ، وأشد مايهجم الناس في حياة الكرامة والسكينة والاطمئنان ، ويثير بينهم الحقد والبغضاء ، ويرميهم بحروب الطبقات وحروب الأمم ، فإذا عولج المجتمع منه نجا من آثار قرينيه وهما الجهل والمرض اللذان يتبعانه ويكونان معه ثالوث الشقاء الانسانى الذى إذا خلا منه وجه الحياة بدا جمالها ورضى الناس عن الحياة ورضى الله عنهم ...

لقد نظر الإسلام فى حال الفقير فرآه إما أن يكون عاجزاً عن الكسب لعلة به ، وإما أن يكون عاجزاً عن الكسب لفقد الوسيلة إلى العمل .

فأما الذى يعجز لعلة لا علاج لها فقد جعل مواساته حقا على المجتمع لاتبرعا وتطوعاً . قال الله تعالى « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » فصان بذلك كرامته الإنسانية .

وأما الذى يعجز لفقد الوسيلة إلى العمل فقد أوجب على الدولة إيجاد الوسيلة لتكسبه ، وقد قبح الإسلام السؤال ودعا المسلم للترفع عنه ، فاليد العليا خير من اليد السفلى . وقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم سائلا درهما وأمره أن يشترى به فأساً وحبلا ويحتطب ، ولا يتعرض لذل السؤال .

والأصل فى الإسلام هو العمل والتكسب ، وقد حض عليه بجميع الوسائل ، حتى لقد فضله على الانقطاع لعبادة الله ، ولكنه كذلك أنصف المجتمع بإلزام الدولة أن تعين على إيجاد العمل لمن لايجده ، وأن تحمى من يعجز عنه .

وقد أراد الإسلام أن يجعل مستوى المعيشة متناسقاً ومتقارباً بين أتباعه ، فحارب الترف فى أعلى المجتمع ، وطارد البؤس فى أسفله ، واتخذ لذلك وسيلتين : وسيلة الضمير وهى أقواهما ، ووسيلة القانون ، فجعل الحياة السعيدة الخالدة لاتنال إلا بالإنفاق على المستحقين من الأهل والأقربين والمساكين ، ولا ينال متاعها المسرفون الذين جعلوا شهواتهم فى هذه الحياة أهدافهم .

جعل ضمير المسلم لايستريح إذا طعم ولبس وتمتع ، وجاره ومن حوله قد عجزوا عن القوت ؛ وحضه حضا قويا على البذل والقناعة والحد من شهواته فى سبيل إغاثة الملهوفين والمحتاجين ؛ حتى لقد أمر أن يطعم السيد الخادم مما يطعم ، ويكسوه مما يكتسى

قال المعرور بن سويد « رأيت أبا ذر رضى الله عنه عليه حلة وعلى غلامه مثلها ، فسألته عن ذلك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « هم إخوانكم وخَوَلُكُم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليُلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل مايغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه » .

ولم يكتف الإسلام بإيقاظ الضمير لهذا ، بل جعل للدولة أن تقتضى من فضلة مال الثرى مقادير لا يستهان بها لتكفل

بوسائلها هي أيضا حاجات الفقراء والمساكين .

وفى الحقيقة حين يحارب الإسلام الترف والاكتناز والربا ، ويقول : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » وحين يقول « الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » وحين يقول . « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » وحين يقتضى الزكاة على الأموال المكنوزة ويحرم الربا ، إنما يريد بذلك كله أن يرفع مستوى الطبقات الفقيرة ، ويخفض من مستوى المترفين ، ليجعل حياة الجميع سعيدة متناسقة .

فتحريم الترف يوجه الأموال إلى إنتاج أكثر فائدة للجميع ، وتحريم كنزها يوجب تداولها ، وتداولها من غير ربا يؤدى إلى المشاركة فيها . وإذا لم يجد الناس فى الترف لذتهم وجاههم ، وجدوهما فى الاحسان والبر . وإذا لم يجدوا فى الكنز ضمانا لهم وجدوه فى ضمانة المجتمع الاسلامى المتكافل الذى لم يهمل أحداً ، ولم يحتقر أحداً . وإذا لم يجدوه فى الربا وجدوه فى لذة الكسب والمشاركة مع إخوانهم الذين يعملون فى أموالهم .

ولو قامت الدولة بواجبها فى كفالة المتخلفين من إخواننا لما يصيبهم فى أنفسهم أو أبدانهم ، أوممايصيبهم من انقطاع السبل بهم مع رغبتهم فى العمل ، وذلك بأن تكون سياستها قائمة على أساس التكافل الذى جاء به الاسلام فى قول رسوله « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » فوزعت الصدقة على من لا سبيل له غير الصدقة ، ووزعت العمل على الناس بقصد الخير العام ولو على سبيل الاجبار على عمل معين للقادر عليه ، لقاتلت هى أيضا الفقر بوسائلها الفعالة .

وقد جعل الاسلام فى هذا سلطات واسعة لولى الأمر ، فله فى سبيل الاصلاح العام أن يحدث أقضية بقدر مايحدث من المشكلات ، وله أن يكيف الأحوال لتسير وفق الغرض الأساسى للاسلام ، وهو الإحسان .

وقد قرر الإسلام فى وضوح وعزم مبدأ المساواة ، وهو أعظم المبادئ فى مقاومة الشرور الإجتماعية وأخصها الفقر ، وجعل هذه المساواة مستقرة فى ضمير المسلم ، ومالكة زمام تصرفاته فى العبادة والمعاملة والأدب .

ومن فضل الدعوة المحمدية على البشر أنها تبغض فى الاستعلاء والترفع على الناس ، حتى ليكاد المسلم يفر من مجرد الخاطر الذى يخطر بذهنه بأنه أفضل من غيره . والمسلم الصادق لايضمر فى نفسه أنه خير من خادمه مع سيطرته عليه .

والله تعالى يشتد على الرسول نفسه ويعاتبه بالقرآن ، لأنه تصدى لقوم من رؤوس العرب يرجو من وراء إسلامهم إيمان أقوام يتبعونهم ، وتلهى بهم عن رجل فقير ضعيف جاء راغباً فى الايمان فقال :

« عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تصدى . وماعليك ألا يزكى . وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى فأنت عنه تلهى »

ولست تجد فى أى تشريع احتفالا بالفقراء واعتناء بشأنهم مثل ما جاءت به الدعوة المحمدية ، إذ تحض المسلمين على رياضة أنفسهم على احترام الغير وتقديره « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء ، عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان » .

ومتى رسخ هذا المعنى فى أذهان الملوك والحكام والعامة والفقراء والأغنياء والملاك والعمال كما أرادته الدعوة المحمدية ، استحالت الفرقة الاجتماعية وما يثيرها من حسد وبغض ، وما يترتب عليها من خلاف وشر ثم قتال وحرب ، وما يكون من تسلط الأقوياء على المستضعفين ، أو مايكون من ظهور المستضعفين واستذلالهم لمن كانوا أقوياء .

ظاهر إذاً أن مبدأ المساواة بالمعنى الاسلامى هو من أكبر دعامات البر وأقتك الأسلحة بآفة الفقر .

وقد دعا الاسلام إلى البر بكل وسيلة ، دعا إليه بالترغيب والترهيب ، ودعا إليه بقوة القانون والدولة ، فقال تعالى : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » .

وقال « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وقال « أرأيت الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يدع اليتيم ، ولا

يحضّ على طعام المسكين » وقال . « كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين » .

وكتاب الله وحياة رسوله يفيضان بفضل الإنفاق فى سبيل الله ، واتخاذ الدنيا مطية للآخرة . ولم يكتف صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم بأن تكون دعوته موجهة بكل قوتها للبر بالفقراء والمساكين والضعفاء والصابين والمعوزين ، بل جعل البر بهم حقا مفروضا لا سبيل إلى المماطلة فيه ، حتى إن العرب لما ارتدت عن دفع الزكاة عقب وفاة الرسول ، ونصح الخليفة الأول بأن يداريهم ، وقد تفاقم الشر ، قال رضى الله عنه « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه » . أى أنه وجه كل قوى الدولة لقتال قوم يمنعون حق الفقير فيما قيمته قيمة حبل يعقل به بعير .

لحقوق الفقراء فى الدولة الإسلامية مصونة ، وليس لأحد أن يمنّ بها فهى حق الله فى ماله وكسبه وملكه ، وقد بينت الشريعة الزكاة وأنواعها وكيفية أدائها ، كما بينت مستحقيها وما لهم وما عليهم بتفصيل دقيق .

وكان من أثر الدعوة المحمدية للبر والإحسان تلك الأوقاف المحبوسة على الخير فى الشرق والغرب ، وكان من أثرها أن تطهرت نفوس المسلمين ، حتى حبسوا من أملاكهم على القطط والكلاب والحيوانات . ومن أمثلة هذا أن نور الدين محمود وقف أرضاً فى دمشق لتكون مأوى للحيوان الهرم ، يرعى فيها حتى يموت .

وتاريخ المسلمين فى كل أوطانهم يفيض بالبر والعطف والرحمة بالبؤساء والغرباء ، وما الكرم الذى كان به فخر البيوت والأسر والشعوب إلا أثر من آثار روح البر والإحسان الإسلامى .

ولم يكن البر فى الدعوة المحمدية خاصاً بأهل الجنس أو الدين ، ولكنه كان عاما للمساكين من البشر ، فما منع اختلاف فى الدين دون البر . قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل »

وتنظيم البر فى العصر الحاضر يجب أن يقوم على نفس الأسس والوسائل التى جاءت بها الدعوة المحمدية ، لأنها أفضل وأدوم ، ولكن يجب كذلك أن نتصرف ونجتهد كى نحقق المقصد والغاية ، وأن ننظر فى عصرنا ، وموارد الثروة فيه ، ومصادر الغنى ، وحالات الناس لنكفل الخير للجماعة ونرضى الله سبحانه وتعالى ، حتى يعود للظهور بيننا من كانوا يأبون أن يتعرضوا لوجوب أداء الزكاة عليهم بإنفاق أموالهم كلها ، حتى قيل لبعضهم كم يجب من الزكاة فى مائتى درهم فقال : أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم ، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع .

ولهذا المعنى تصدق أبو بكر رضى الله عنه بجميع ماله ، وعمر رضى الله عنه بشطر ماله .

ولا عجب فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وروح الدعوة المحمدية واضحة فى أن الزكاة وحدها لا تبرئ أموال المسلمين من حقوق المحتاجين فيها ، فما دام محل للبر والصدقة فهى واجبة ، وحق المسلم لا ينتهى بأداء الزكاة .

يجب إذاً أن نستلهم من شريعة الإسلام الهدى ، وأن نستوحى من روح الدعوة المحمدية نظاماً للبر تقوم عليه الدولة ، لتوازن بين الثروات والحاجات ، وتقيم التكافل الاجتماعى ، وتقضى على حرب الطبقات « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

عبد الرحمن عزام

مطبعة الرسالة
تقدم
الطبعة الجديدة من كتاب :
فى أصول الأدب
للأستاذ
أحمد حسن الزيات
يطلب من « دار الرسالة »
ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ٢٥ قرشاً عدا أجرة البريد